على طريق الأصالة الإسلامية

١٦

سقوط مفهوم القومية الوافد

أنور الجندي

دار الأنصار
بالقاهرة

على طريق الأصالة الإسلامية

١٦

سقوط مفهوم القومية الوافد

بقلم

أنور الجندي

دار الأنصار

مكتبة - طباعة - نشر - توزيع

٨٦ شارع البساتين ناصية باب اللوق - عابدين

ت ٩٣١٥٨١

سقوط مفهوم القومية الوافد

كشفت الأبحاث الجادة التى قام بها باحثون محايدون ، أن نظرية القوميه العربية التى طرحت فى أفق الفكر الإسلامى ، كانت بمثابة مؤامرة استهدفت تمزيق الوحدة الإسلامية ، السياسية والإجتماعية والفكرية ، وأنها هى أخطر المحاولات لتفريق عقد الأمة الإسلامية ، التى كانت مترابطة تحت كلمة التوحيد . وقد جاءت هذه الأبحاث بعد ركام ضخم من الكتابات والدراسات ، التى قدمت منذ الثلاثينات من هذا القرن ، بهدف تدمير وحدة العروبة والإسلام الجامعة ، التى كان يصدر عنها رجال العمل السياسى فى البلاد العربية .

كانت الدعوة إلى القومية ، بمثابة دعوة إلى الإقليمية أولا ، فى الأقطار التى لها تاريخ قديم سابق للاسلام ، وكانت من ناحية أخرى كمحاولة لفصم عرى العروبة والإسلام ، فقد استعملت كلمة القومية بمفهوم الإقليمية فى مصر باسم الفرعونية ، وفى

سوريا باسم الفينيقية ، وفى العراق باسم الاشورية والبابلية ، وفى المغرب باسم البربرية .

وتركزت حول هذه الدعوى دراسات مضللة ، قام بهـا مستشرقون يتبعون وزارات الاستعمار فى فرنسا وانجلترا مستهدفين إحياء هذه النحل التى قضى عليها الإسلام ، حين جاء قاطعاً لذلك الإرتباط القديم الذى يفرق بين اجتماع أمة الإسلام وبين ارتباطها وتاريخها ولغاتها القديمة .

الإبعاد والتفسيرات :

وحتى نعرف أبعاد قضية القوميات وتفسيراتها الوافدة ، يجب أن نراجع تصريحاً تردد على ألسنة الكثيرين من دعاقين السياسة فى أوائل هذا القرن ، يلخصه الدكتور « صموئيل زويمر » كبير المبشرين البروتستانت فى الشرق فى قوله : « إن أول ما يجب عمله للقضاء على الإسلام هو إبعاد القوميات » .

ولقد كان أول عمل بدأت به الإرساليات التبشيرية فى بيروت هو الدعوة إلى العروبة بهدف تمزيق وحدة العرب والترك ،

القائمة تحت لواء الخلافة العثمانية ،

وكان حملة هذه الدعوة هم مسيحيو لبنان ، الذين كانوا يطالبون بكيان مستقل داخل الدولة العثمانية ، ثم ظهرت الدعوة إلى القومية التركية ، تحت اسم الطورانية عن طريق حزب الاتحاد والترقي ، بهدف إخراج تركيا من طابعها الإسلامي ، فلما نجح حزب الاتحاد والترقي في الوصول إلى الحكم أخذ يعمل على تتريك الشعب وتحويل المحاكم والمدارس ودور الحكم إلى اللغة التركية والقضاء على اللغة العربية ، ومن هنا بدأ العرب في المملكة العثمانية في الدفاع عن أنفسهم فنشأت الدعوة إلى العروبة ، فلما سقطت الدولة العثمانية اتخذ العرب من الترابط تحت اسم العروبة أسلوباً من أساليب مقاومة النفوذ الأجنبي .

تفسير غربي:

غير أن الاستعمار والنفوذ الأجنبي، عمد إلى طرح مفهوم العروبة مستمداً من مفهوم القوميات الغربية استشرى أمره وحاول أن يقضي على ترابط العروبة والإسلام، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فإن الفكر الوافد حاول أن يطرح عدة نظريات، ليمزق وحدة الفكر

الإسلامي ، ويحول به دون الإلتقاء في كيان جامع موحد ، فكانت هناك الدعوة إلى القومية الوطنية ، وتمثلت في الدعوة إلى القومية اللبنانية والقومية السورية والقومية المصرية ، وكانت هناك دعوة القومية المستمدة من مفهوم النظرية الألمانية أو النظرية الفرنسية ، وإحداهما تعتمد اللغة أساساً لها ، وتعتمد الأخرى مفهوم المشيئة .

ولم تكن الدعوة إلى القومية الوطنية في حقيقتها إلا دعوة إلى الاقليمية في محاولة لاعطاء هذه الاقليميات طابع القوميات.

التحريف:

ثم لما برز طابع العروبة ، الذي كان هو منطلق سوريا والعراق والحجاز في مواجهة الطورانية أولا ، ثم في وجه الاحتلال الفرنسي لسوريا ولبنان ثانياً ، كموقف مفروض لا محيد عنه هنالك رأت حركة التغريب أن فكرة العروبة بمفهومها الاسلامي التي أخذت تترعرع ، بمثابة خطر جديد عليها فأخذت تتدخل فيها لتحريفها وإفسادها ، وذلك بعد أن فشلت دعوة الإقليميات لذلك فقد عمدت إلى طرح نظرية القومية العربية وحشدت لها

حشوداً ضخمة ، بهدف زعزعة المقومات الأصيلة ، وتعرية العروبة من كل مفاهيمها المرتبطة بالإسلام سواء على صعيد السياسة كالترابط والانفتاح بين الأمم الإسلامية ذات التاريخ والثقافة والعقيدة الواحدة ، والتي تجمعها منذ خمسة عشر قرناً أرضية ثابتة ورصيد ضخم .

ماذا يريدون ؟؟ :

كانت النظرية الغربية في القومية تريد أن تحمل معها ثلاثة محاذير خطيرة :

أولا : طابع الاستعلاء الجنسي للعرق في مواجهة الأمم الإسلامية .

ثانياً : طابع الانعزال الكامل عن التاريخ والتراث والمقومات الاسلامية .

ثالثاً : خلق وجود معاصر منفصل تماماً عن الاسلام وعن العالم الاسلامي متصل بالغرب ، مندغم في تفسيراته وقيمه وطوابعه .

وماذا غاب عنهم :

وقد غاب عن الذين طرحوا النظرية الغربية فى القومية ، أن هناك عاملا ضخما لا سبيل إلى تجاهله أو إغفاله من أى نظرة علمية ذلك هو الطابع الفكرى العميق الذى صاغه الاسلام للشكل العربى، فى أولى مراحل وجود العرب كأمة، بعد أن كانوا مجموعة من القبائل المتصارعة ، وأن هذا الطابع قد أقام حداً فاصلا عميقاً (فكرياً وسياسياً واجتماعياً) بين ماضى العرب والمصريين والشاميين والعرب والمغاربة جميعاً ، وكل من عاش فى هذا العالم الممتد ، الذى سيطر عليه الاسلام وشكله الفكر الاسلامى ، وخاصة تلك المنطقة التى تعربت وأصبحت تسمى مجال العروبة، وأنه لا سبيل إلى اعادة هذه الأمم الى ماضيها القديم ، بعد أن نقلها الاسلام ، تلك النقلة الواسعة من الأساطير والوثنيات والعصبيات والصراع الفكرى والفراغ الاجتماعى ، الى ذلك الطابع المتكامل من التوحيد والعدل والحق والمقومات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والقانونية الواضحة فى ذلك النظام المحكم الذى نزل به القرآن ورفع لواءه الاسلام .

متى بدأوا؟ :

فى عام ١٩٤٠ تقريباً بدأت عملية طرح النظرية الغربية فى القوميات وظهرت أقلام تتحدث عن فلسفة القوميات ، وتشكلت هذه الفلسفة على هيئة المؤسسات وأحزاب ومدارس فكرية ، وبدأت تقطة انطلاقها من لبنان ومن خلال خريجى معاهد الارساليات ، والعائدين من بعثات تعليمية أجنبية ، واتخذ بعضهم الأسلوب المجنح الحالم الصوفى، الذى يحاول أن يعطى كلمة القومية العربية مفهوم العقيدة الدينية ، ويروج لها فى اطار من المزامير والموسيقى والأناشيد والتراتيل، على نحو يؤثر فى نفوس الشباب الطامح المتوقد حماسة الى مثل أعلى وفكرة ومنهج حياة.

وقد شاء أصحاب الدعوة ، أن يرجعوا التاريخ المكتوب الذى عاشته العروبة فى كنف الاسلام ، أن يرجعوه القهقرى من جديد ، ليدخلوا فيه كلمة القومية التى لم يكن يعرفها ، والتى لم تجر على الألسنة والأقلام الا فى أوائل هذا القرن الميلادى ، والتى يندر أن يوجد نص مكتوب لاديب او مفكر أو شاعر ينخذ من كلمة (ق و م) شعاراً له أو منطقاً فى قصيدة أو مقال أو كتاب .

محاولة زائفة :

ذلك أن أصحاب هذه الدعوة لم يكفهم أن يقولوا كلمتهم اليوم . ولكنهم حاولوا أن يقيموا لها تاريخا طويلا عبد المدى ، يسبق ظهور الإسلام ويمتد بعده ، ولا شك أن تلك المحاولة كانت باطلة وزائفة ، ذلك لأنه لم يكن هناك إلا تاريخ واحد ، هو تاريخ الأمة الإسلامية ، والعرب جزء منه ، ولم يكن هناك ما يفرق بين العرب والمسلمين خلال ذلك التاريخ الطويل ، الذى كان العرب والترك والفرس والهنود فيه كلا متكاملا .

ولاريب أن تفسير التاريخ الإسلامى تفسيرا قوميا ، كان مضللا وكاذبا ، حيث لم يكن هناك انفصال بين الإسلام والعروبة إلا بعد الاحتلال الأجنبى وانفصال الدولة العثمانية عن العرب .

كذلك فقد كان هدف دعاة القومية أن يفصلوا العرب عن الفكر الإسلامى ، وعن الامتداد الإسلامى ، وأن يخلقوا كيانا عربيا جاهليا يعود بالعرب إلى كنعان وعدنان وإرم ، وإحياء هذا التراث القديم ، بعد أن سيطر الفكر الإسلامى أربعة عشر

قرنا كاملة على هذا العالم الواسع ، واستوعب فى أعماقه كل فكرة صائبة ونظرة صالحة من ذلك التراث القديم .

كيف انكشف الفساد ؟ :

وإذا كانت بعض الظروف قد أفسحت المجال لطرح النظرية الغوغية الوافدة حينا ، فانها لم تلبث أن تكشف فسادها وغرابتها على الروح الإسلامية وأنها ليست منبعثة من وجودنا ، وليست تمثل فكرنا أو كياننا أو جوهر قيمنا .

إن أخطر ما وقع فيه هؤلاء الدعاة جميعا ، أنهم صدروا عن مفهوم وافد تشكل فى إطار المجتمع الغربى ، وواجه المسيحية الغربية ، وفاتهم اختلاف العلاقة بين العرب والمسلمين ، وبين مفهوم الإسلام كعقيدة تختلف عن المسيحية ، فى أنها ليست نظرية لاهوتية او علاقة بين الله تبارك وتعالى والفرد ، ولا صلة لها بأنظمة المجتمع ، كما فاتهم أن الإسلام عقيدة ومنهج حياة .

ولأن القائمين بالدعوة كانوا غربيى الفكر . فقد فاتهم فهم حقيقة الإسلام الجامعة بين الدين والدولة ، وبين الدين والمجتمع ، وأنه حضارة وثقافة ومنهج حياة .

وبالجملة فإن دعاة القومية الوافدة قد جانبوا الأصالة والفهم العميق للإسلام والعروبة، وكانت محاولتهم فى فرض مفهوم غريب دخيل وافد، محاولة مهدرة، شأنها شأن المحاولات التى فرضت على الفكر الإسلامى من قبل ومن بعد، وقد أعلنت جميعها فشلها الكامل، كالديمقراطية والاشتراكية والوجودية وغيرها.

وشهد شاهد:

ويصدق فى هذا دارسان غربيان أولهما: «أرنولد توينبى» الذى يقول فى كتابه: «المسيحية بين أديان العالم» أن الشيوعية والقومية هما العدوين للأديان، إذ هما شكلان مختلفان لموضوع فاسد، ألا وهو عبادة الإنسان لنفسه.

ويقول «الفريد كانتول سميث»: «إن القومية المجردة ليست هى القاعدة الملائمة للنهوض والبناء وما لم يكن المثل الأعلى إسلاميا على وجه من الوجوه فان تثمر الجهود، وتاريخ الشرق الأدنى الحديث يدل على ذلك».

بل إن مستشرقا آخر ينصح قومه بالتخلى عن طرح هذه

النظرية لفسادها ذلك هو « البرت حوراني » الذي يقـــول :
« ليست القومية نظاما فكريا متكاملا ، ولكنها نقطة بداية تنظيم المجتمعات المتحدة ، فان الشرق العربي قد وصل إلى مرحلة ما بعد القومية » .

القومية العربية وهدفها :

وهذه حقيقة فإن السنوات الأخيرة قد كشفت عن فساد منطلق القومية ، وعجزها عن أن تحقق شيئا ، بل أنها قد سجلت على نفسها ذلك الأثر السيء العميق ، الذي أخر نمو الوحدة الإسلامية ، التي هي الطريق الأصيل للالتقاء الجامع ، تحت لواء العقيدة والمنهج ، وقد تبين أن القومية أيديولوجية غربية كانت في انبعاثها بالغرب تستهدف تحطيم الوحدة المسيحية الجامعة ، التي كانت تشكل أطارا عاما في الغرب ضد اليهودية ، التي كانت تعيش في أحياء الجيتو دون أن تختلط بالحياة الاجتماعية الغربية ، وقد رأت الدوائر الأجنبية التي طرحتها في أفق العالم الإسلامي أنها يمكن أن تمزق وحدة العالم الإسلامي .

ولقد كانت القومية الطورانية ، قومية لا دينية تحمل لواءها

ضياء كوك ألب وأحمد أغادف ويوسف أشفورا ، وكانت تدعو إلى أمجاد طوران ، كما ظهرت القومية الفارسية ، لتنظم أمجاد فارس قبل الإسلام والسير على خط كورش « قورش » أما القومية العربية فقد قادها لورنس عميل المخابرات البريطانية والصهيونية معا ، وأسلمها إلى مجموعة من دعاة التغريب وتلاميذ الاتحاد والترقى العرب .

هوية دعاة القوميات :

وكان كتابها ودعاتها يحملون العداء لكل ماهو إسلامى . وقد اختلفوا فى كل شىء ، واتفقوا على شىء واحد هو رفض الإسلام ، عقيدة وتاريخا ، وحضارة ، وأعلنوا عداوتهم للتراث والأمجاد التاريخية وللفصحى ، وحين أعلنوا أن مقومات القومية هى اللغة والتاريخ فاتهم أن اللغة هى الفكر لا اللفظ ، وأن التاريخ لا يفصل بين العروبة والإسلام وأن الإسلام - حسية ووطن بكل معنى الكلمة لها ركائزها من اللغة والمشاعر المشتركة ووحدة الهدف .

وإن الإسلام هو الذى حمى الوطن العربى من الصليبيين ،

بعد أن أقاموا أربع إمارات صليبية لهم على ساحل الشام ، جاء صلاح الدين المسلم الكردى ليستأصل العروبة من وجودها ، وقد أكمل هذا الدور قطز وبيبرس ، وهما من المسلمين لا العرب . لقد جاء بعد صلاح الدين الكردى ، المماليك الذين حموا الأرض العربية من التتار وقضوا على بقية معاقل الصليبيين .

وفى الجزائر التى وصفها الفرنسيون بأنها فرنسا الجنوبية ، كان الإســـلام ، وليست اللغة العربية هى التى حمت الأمة مائة وثلاثين عاماً بعد أن تحطمت اللغة والثقافة ، ولولا القرآن ما كانت هناك قوة فى الأرض تستطيع أن تحمى اللغة العربية فى الأرض الجزائرية بعد أن ظلت تتعرض لحرب منظمة مدى قرن وربع قرن من الزمان . ولا ريب أنه حيث يسقط الإسلام يسقط العرب ، وأن العرب بغير الإسلام لا شىء ، فهو الذى شكلهم وأقامهم كأمة ، وهو الذى رفع أعلامهم على مشارف القارات الثلاث .

طبيعة التكوين الأصيل :

ولا ريب أن نظام الإسلام قد كون رجالا عرباً وعجماً

لكوينا نفسياً وعقلياً فصدروا عن حركتهم التاريخية ، عن هداه وسننه، وحيث لم يناقض الإسلام المقومات الجنسية، وترك لكل أمة شخصيتها النابعة من التطورات المختلفة عبر القرون، بل لقد حافظ على الكيان الخاص لكل بنية .

التفسير القومي تفسير جزئي :

ولا ريب أن التفسير القومي جزئي وناقص ، ومناقض للحقيقة التاريخية الجامعة ، ومناقض في نفس الوقت لعموم الرسالة التي لا تعترف بالحركات القومية الضيقة الأفق ، ولا ريب أن الإسلام يمكنه أن يظل حياً بدون العروبة ولكن العروبة وحدها عاجزة عن إثبات وجودها ، ومعنى هذا أن الإسلام قوة دافعة للعروبة وليس قطاعا منها ، بل هو سبب قوتها وتماسكها وبقائها، كما أنه ليس حربا عليها. وأن أي محاولة للفصل بينهما، يسيء إلى العروبة أكثر مما يسيء إلى الاسلام .

منزل الوحي:

وقد شرف الله تبارك وتعالى أرض العروبة فجعلها منزلا

لوحيه وقرآنه ومنبتا لخاتم رسله ، وقد امتزجت العروبة بالإسلام امتزاجاً قوياً ، جعل غير العرب ينظرون على أنهما شيء واحداً وقد وقف القرآن الكريم سداً منيعاً لحماية اللغة العربية من الذوبان والانصهار فى اللهجات .

ولقد كانت كل مشروعات تبسيط اللغة العربية تهدف إلى القضاء على القرآن ، بينما وقف القرآن سدا منيعاً مستعصياً على التحريف والتصحيف .

من المجاهدين الأول :

وفى مراجعة مع السيد « محب الدين الخطيب » رحمه الله . حول مفهوم العروبة أبان حركتهم بعد الحرب الأولى قال :

إن مفهوم العروبة ومفهوم الإسلام لم يكونا منفصلين وكانت العروبة تعنى إرتباطها بالإسلام ولا تنفك عنه ، ومفهوم الإسلام أنه قام ويقوم بالأمة العربية الأولى التى لم تكن منفصلة عن أرضية الفكر الإسلامى ، وإنما كانت حلقة من حلقاته ، وإذا كان دعاة الفكر الإسلامى قد عملوا فى جانب العروبة فى هذه الفترة ، أى

بعد الحرب العالمية الأولى ، فمعنى هذا أنها قد أصبحت هى القلعة التى جرى من خلالها العمل لمقاومة الاستعمار والنفوذ الغربى وحركة التغريب والغزو الثقافى .

وقد حرص الاسلاميون على الربط بين مصر العربية ومصر الاسلامية، وكانت لهم وذلك نظريه دقيقة وضحة أما الفرعونية والفينيقية والبربرية ، فقد كشف الأبحاث من بعد عن أنها فروع من العروبة وأنه لا تضارب بينها ، فهى موجات خرجت من الجزيرة العربية . واستقرت هنا وهناك على طول الأرض العربية وعرضها ، وأن محاولة الاستعمار فى استخدامها للتفريق كانت باطلة .

تجربة مريرة:

ويصور هذه الرحلة الاستاذ « إدريس الكتانى » فى بحث مطول فيقول : « أنها كانت تجربة مرة عاشها العرب منذ الحرب العالمية الأولى ، وتمثلت فى انجاه كثير من الزعماء والأحزاب ، لدوافع وأسباب مختلفة لخلق إطار موحد للعمل يكون اساساً للنهضة العربية ، ويجمع شمل الأمة العربية ، وقد قبل العرب هذا

الاطار باعتبار انه مجرد غطاء خارجي لمحتوى اساسي هو الاسلام، ولكن هذا الاتجاه تطور فيما بعد ليجعل « الغطاء » هو المحتوى، وبدأ الناس يبحثون عن فلسفة خاصة وهكذا أصبحنا نحن الذين أيدنا (القومية العربية الاطار) نراها تتحول إلى المذهب ورغم أنها لم تتمتع بالتأييد لزمن أطول، ولو أنها استطاعت أن تحقق اقل قدر من النجاح لأثبتت اصالة بنائها، وأنها قامت على ارض صلبة لا على كثبان من الرمال، ولقد عجز مذهب القومية ان يخلق في نفوس اصحابه شيئا من هذا الايمان او قليلا من التضحية .

بعد أن دفعنا الثمن:

هذه الوحدة العربية لم تتحقق حتى بين دعاتها وأنصارها الذين اتخذوها شعارا لهم، ولم تحقق شيئاً للعرب المؤمنين بها، ومعنى هذا أن تجربة هذا المذهب تكون قد استنفذت غرضها، بعد أن أدى العرب ثمن فشلها غاليا، وينفتح الباب أمام الإسلام من جديد ليوحد العرب أنفسهم، ويمضي العرب إلى تحقيق وحدتهم ولكن باسم العقيدة التي وحدتهم أول مرة، وباسم العقيدة سيواصلون معركتهم على واجهتين .

ضد التخلف داخـــل الوطن الأكبر ، وضد الاستعمار والصهيونية في كل مكان في الأرض وعندئذ يكون عصر اليقظة الإسلامية قد انتهى ، ويبدأ فجر النهضة و شرق شمس الإسلام من جديد على العالم » .

وقال : « إن هناك مراحل قطعها الاستعمار والتغريب في تعويق الإنتقال من اليقظة إلى النهضة : منها الأقليمية والقومية والماركسية والقانون الوضعي والنظام السياسي الغربي والتعليم بمناهج الغرب العلمانية ، ومحاولات تخذيل الفصحى لغة القرآن » .

سقطات المحاولة وسقط البديل :

ولقد سقطت تلك المحاولات ، التي كانت تستهدف أن تحل القومية بديلا عن دين الله ورسالة محمد ﷺ لأنها أرادت أن تفرغ العروبة من محتواها الإسلامي ، أمة وعقيدة وأرادت أن تقيم قومية حاقدة منفصلة منغلقة عن أرض الإسلام كما هي منغلقة عن قيم الإسلام نفسه ، فيها المفهوم المادي الوثني ، وفيها أحقاد الأمم ، حيث أن مفهوم الإسلام لا يفصل بين الدين والدولة ، ولا يعرف حكومة إلهية ولا يعرف تفرقة بين الناس على أساس من العنصر والعرق .

تيار غزو ثقافى :

وبالجملة فإن الفكرة القومية كانت تيارا من تيارات الغزو الثقافى ، استحدث أساليبه بعد أن سقطت دعوى الوطنيات والاقليميات ، وكانت مهمته تفريغ القضية السياسية والاجتماعية بوجه عام من المحتوى الإسلامى ، واحلال فلسفة أخرى وعقيدة أخرى محل عقيدته . واستبدال رابطة أخرى برابطته ، لعزل الشعوب الإسلامية بعضها عن بعض عزلا نهائيا ، بحيث تكون صلة بعضها ببعض كصلتها بأى شعب من الشعوب الأخرى التى تدين بالوثنية والماركسية وبذلك تنسف الجسور التى تصل بين الشعوب الإسلامية .

ولقد كان طرح فكرة القومية العربية عامل التمهيد لطرح فكرة القومية الصهيونية ومجالا لظهور دعوة إلى القومية الكردية ، وغيرها من قوميات ، وكان أخطر ما هنا لك محاولة دعاة القومية إلى إيجاد منهج اشبه بالدين يحل محل الإسلام ، وتلك دعوتهم إلى إيجاد نظام نظرى شامل يستوعب الحياة الإنسانية بأكملها ، فلا يخرج عن دائرته قطاع ما من قطاعات الوجود البشرى ، وصياغة عقيدة قومية كلية تضاهى فى كليتها وشمولها الفكرة

الشيوعية ، أي أن الهدف الحقيقي هو إحلال القومية محل الإسلام وأن يصبح العرب بين خيارين : ما الشيوعية أو القومية المادية الوثنية ، وكأنما أبعد الحق الأصيل وهو الإسلام الذي يحمل المنهج الأصيل ، والذي يقاوم زيف الشيوعية والذي تعجز القومية مهما أوتيت من قوة أن تحققه وهي تركيب مفتعل معارض للفطرة الإنسانية ، مجاف لطبيعة الحياة وقد سموا هذا الخليط الزائف (عقيدة قومية) .

والسؤال الآن :

هل استطاعت الفكرة القومية الوافدة أن تحتوي مفهوم العروبة والإسلام ؟ ؟ والواقع أن مضمون الفكرة القومية عند أمم الغرب كانت على الدوام مقترنة بفكر التفوق الشعبي واحتقار الأمم الأخرى ، وهو معنى لا يقره أي مسلم أو يرضاه ، كذلك فقد عارضت الفكرة القومية الوافدة مفهوم الإسلام ، واعتبرته دينا لاهوتيا — وهو ليس كذلك — بل هو منهج حياة ونظام مجتمع ، ولقد كشفت الدراسات عن أن نظرية القومية الغربية هي دعوة عنصرية تستهدف قطع الروابط والصلات الجامعة بين

المسلمين ، وتفريق الأمة الإسلامية إلى كيانات فضلا عن عملهم في عزل العرب عن التاريخ الإسلامي ببطولاته ومواقفه ، وحصرها في التاريخ الاقليمي ، وكذلك عزل الأدب العربي الحديث عن الأدب الإسلامي ، وفرض مناهج التفكير الغربي في السياسة والاقتصاد والقانون والتربية ، وهذه كلها محاولات تستهدف تغريب المسلمين ، ولقد سقطت هذه المحاولات سقوطا تاما ، وتنبه العرب إلى أهداف المؤامرة ، ويكفيهم أن مفكروا الغرب قد كشفوا هدفها وزيف وجهتها .

والمعروف عندما ظهرت هذه الدعوة عارضها جماعة من المفكرين الاسلاميين يومئذ ، بدعوة مضادة تحت شعار الجامعة الاسلامية باركها وأيدها السلطان عبد الحميد « المفترى عليه » رحمه الله ، وكان من دعاة هذه الفكرة الامام محمد عبده رحمه الله .

وسقطت نظرية ساطع الحصري :

حدثني الدكتور مختار الوكيل مدير مكتب الجامعة العربية في جنيف . . وهو رجل صادق مؤمن أنه في خلال عمله زار الأستاذ ساطع الحصري سويسرا وراى السيد عبد الفتاح حسن السفير

المصرى دعوته إلى طعام الغداء فلما قدم مع الدكتور الوكيل حياة السفير المصرى فقال :

« مرحباً بالمناضل الكبير فى خدمة العروبة والاسلام » وقد عجب الرجلان من ساطع الحصرى الذى رد فى عنف وحدة :

« عرب نعم . . إسلام لا . . أنا لابيك ، أنا لابيك » .

وكلمة « لابيك » تعنى أن صاحبها علمانى أو لا دينى .

مازال ندوة الاعتصام تركز على تاريخ الاسلام والعرب المعاصر ، وعلى الأعلام البارزين : سعد زغلول ، لطفى السيد ، ساطع الحصرى الخ . . وقد أحرز ساطع الحصرى شهرة وافرة فى سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية باعتباره « فيلسوف القومية العربية » حيث روج لنظرية خطيرة كانت بعيدة الأثر فى حجب مفهوم العروبة الأصيلة المرتبطة بالاسلام . . فكراً وعقيدة ، وبالعالم الاسلامى تكاملا وأخاء . . لقد كان دعاة حركة اليقظة فى البلاد العربية يرون أن الجامعة الاسلامية قائمة بين العرب والمسلمين (فرسا وتركا) بعد زوال الدولة العثمانية . . ولكن ساطع الحصرى كان من أوائل الدعاة إلى فصل العرب من المسلمين

بمفهوم القومية الغربي الوافد الذى طرحه فى أفق الفكر السياسى العربى .. وهذا يرجع إلى أن ساطع الحصرى كان ثمرة من أنضج ثمار المدرسة الاتحادية التركيه ، وأكبر الدعاة الذين نقلوا مفهوم القومية الطورانية التركية إلى أفق العروبة التى كانت ترتبط بمفهوم الاسلام فى العلاقة بين الشعوب التى جمعها التوحيد والقرآن ونبوة محمد ﷺ ، والفكر الاسلامى الأصيل .. لقد كان ساطع الحصرى مديراً للتعليم فى الدولة الاتحادية التى حكمت تركيا بعد إسقاط السلطان عبد الحميد بمفهوم العثمانية والطورانية .. وقد تعلم فى مدرسة الاتحاديين ، وآمن بفلسفتهم ، ونقل فكرهم ومضامينهم إلى العرب ، وذلك فى سبيل تمزيق الوحدة الاسلامية الجامعة عرباً وتركاً وفرساً ، وخلق أسلوب القوميات والاقليميات التى تقوم على الصراع والاستعلاء بالجنس والعنصر .. وهو أول من حمل لواء العنصرية والعرق والدم بديلا لمفهوم الاسلام الذى يقوم على الاخاء الانسانى وقد كان فلاسفة الفكر القومى التركى من الاتحاديين تلاميذ الفلسفة الوضعية متشبعين بالنزعة الطورانية العدوانية ، وقد استمد ساطع الحصرى مفهومه للعروبة من مفهوم القومية الغربية ، والنظرية التى طبقها الاتحاديون فى تركيا وقد ركز على اللغة والتاريخ وعزلهما عن الفكر الاسلامى الجامع

كـكل ، كما ركز طه حسين على الأدب وعزله عن وحدة الفكر الاسلامى .

ونظرية ساطع الحصرى التى روجت لها بعض الأحزاب السياسية العربية قد أثبتت خلال أكثر من ثلاثين عاماً فشلها الذريع وعجزها عن العطاء . . لأنها فرغت مفهوم العروبة من قيمه وتاريخه وعناصره الأخلاقية والروحية وجعلته مفهوماً مادياً خالصاً . . وقد اعترف ساطع الحصرى بأن إسرائيل قومية تقوم على الدين ورفض اعتبار الإسلام مقوماً بوصفه ديناً . . ذلك أن مفهوم ساطع الحصرى للإسلام ناقص ، فهو يراه ديناً لاهوتياً وليس ديناً ومنهج حياة ، ونظام مجتمع على النحو الذى يؤمن به دعاة العروبة الإسلامية . . لقد فهم الاسلام على أنه « دين عبادى » كما فهم الأوربيون المسيحية ، ولم يفرق بين الدين بعامة والاسلام بخاصه ، ولم يفرق بين العصر والبيئة والجذور الثقافية التى يختلف فيها عن مفهوم القومية فى أوربا . ولقد كان مفهومه للعروبة ناقصاً ، فلم يصل إلى مفهوم العروبة المترابط مع الاسلام هذا الترابط الجذرى الذى لا سبيل للإنفكاك عنه .

ويرى كثير من الباحثين أن ساطع الحصرى لم يعايش المناخ

العربي قبل أن يضع مجموعة آرائه ، وأنه استهدى بمناخ البلقان والنظريه الألمانية فى حركته القومية التي رفع فيها شعار اللغة فى مواجهة الدولة العثمانية للتحرر منها ، وأنه كان حاقداً على العثمانيين حقد المحافل الماسونية التي احتضنت الاتحاديين ووجهتهم وجهتها ودفعتهم إلى الدعوة إلى الذئب الأغبر كرمز لها بديلا للقرآن .

وقد كان أكبر أساتذته فى مفهوم القوميات « ماكس مولر » ونورردوا ، وهما فيلسوفان يهوديان قصدا من وراء نظرية اللغة إلى إحياء القومية اليهودية . وقد اعتبر ساطع الحصرى اللغة أساس القومية ، وعارض نظرية الأرض التي دعا إليها أنطون سعادة دون أن يتفطن إلى أن الفكر لا اللغة هو مصدر الوحدة .

وقد أجرى ساطع الحصرى الجدل حول عديد من النظريات الأوربية فى القومية دون أن يواجه جوهر المفهوم العربي : الإسلامى المصدر والجذور ، هذه الجذور التي تجعل من العسير فصل اللغة عن الفكر واعتبارها مقوما منفصلا ، أو الإعتماد على نظرية بقاء اللغة أو ضياع اللغة ، مع أن الأساس هو بقاء العقيدة والفكر الذى يحمى وجود الأمة الحقيقى ، والواقع أن ساطع الحصرى كان غربى الفكر أساساً ، بل وغرب الذوق أعجمى النطق ، وأن تركيبه الثقافى والإجتماعى كان يحول بينه وبين تبنى نظرية

عربية أصيلة مستمدة من واقع الأمة العربية وكيانها ، وذاتيتها وقيمها التي لا تنفصل فيها اللغة والتاريخ عن الفكر نفسه ، وفي ذلك مغالطة أو جهل . ذلك أن اللغة العربية ليست لغة أمة فحسب ولكنها في نفس الوقت لغة فكر وعقيدة فإذا كان العرب وهم مائة مليون يتحدثون بها فإنها لغة العقيدة والفكر لألف مليون من المسلمين مرتبطين بالقرآن الكريم ، والسنة الشريفة ، وذلك التراث الضخم من الفقه والعلم والتاريخ . وأن اللغة لا تنفصل عن الفكر وأن تاريخ العرب لا ينفصل عن تاريخ الإسلام ، ومرجع ذلك إلى أن ساطع الحصري نشأ — كما ذكرنا — في بيئة الاتحاديين الأتراك الذين كانوا صنائع الفكر الدونمي ، والذين نشأوا في أحضان المنظمات الماسونية ، وحملوا لواء الإيمان بالفصل من الدين والمجتمع ، وفهموا الإسلام فهماً غريباً على أنه دين لاهوتي ، وعلى هذا الفهم الخاطىء القاصر قامت نظرية ساطع الحصري التي لمعت سنوات تحت تأثير الخداع والأهواء ، حتى أن بعض دعاة الماسونية في العالم العربي راح يفسر عن طريقها تاريخ الإسلام كله ، فيرى أنه تاريخ قومي عنصري عربي ، ومن ثم وجهت عبارات الحقد والخصومة إلى الأمم الإسلامية ، وهذا هو الثمرة الحقيقية التي كانت تهدف إليها حركة الغزو الثقافي

والتغريبين من طرح هذه النظرية القومية ، الإقليمية الضيقة العدوانية الوافدة ، بديلا عن المفهوم الأصيل للعروبة فى إطار الإسلام كما كان يفهمه شكيب أرسلان ورشيد رضا ومحب الدين الخطيب وحسن البنا ومصطفى السباعى ومحمد المبارك .

هذه النظرية المضطربة التى خدع بها ساطع الحصرى الكثيرين والتى سايرها كثير من المثقفين قبل أن يعرفوا سمومها العميقة .. فلما عرفوها هاجموها وكشفوا زيفها ، والنظرية مضطربة من أساسها ، ولو كان ساطع الحصرى حسن النية لصحح موقفه من فهم الدين فهماً غربياً لاتينيا وفهم الإسلام بمعناه الجامع بين العقيدة ونظام المجتمع . لقد اعتمد أساس نظرية مفهوم الدين اللاهوتى بمفهوم أوربا والغرب للدين ، ولذلك عجزت النظرية أن تنجح فى إطار الفكر الإسلامى ، بل أن كل العناصر التى عالجها كانت عناصر البيئة الغربية فى مواجهة الصدع بين الجامعة المسيحية الأوربية وبين القوميات الأقلية والتى كانت وراءها اليهودية الصهيونية لتمزيق هذه الوحدة والسيطرة على كل قطر على حدة ، وهو نفس ما أرادته بالنسبة للجامعة الإسلامية لتركيا التى وقفت أمام دخول الصهيونيين إلى فلسطين ، وموقفهم من السلطان عبد الحميد واضح معروف .

أن كل التحديات التي تعالجها نظرية القومية الوافدة لا توجد أساساً في المناخ الإسلامي ، هذا فضلا عن اختلاف مفهوم (العروبة) عن مفهوم القومية في الغرب فضلا عن اختلاف مفهوم الإسلام عن مفهوم الدين بصفة عامة .

ومصدر خطأ ساطع الحصري أنه عجز عن فهم أبعاد الفكر الاسلامي وأعماقه ، وعلاقة العرب بالاسلام ، وعاش في مؤلفاته خادماً لنظرية القومية الأوربية الوافدة التي قدمها النفوذ الأجنبي من بين ما قدم ليحطم الوحدة العربية الاسلامية الجامعة بعد أن عجز عن فرض الاقليمات القائمة على التاريخ القديم كالفرعونية والفينيقية والآشورية والبابلية . ولما رأى هذه المحاولات تتهاوى ورأى أن العرب يتجهون إلى الوحدة أراد أن يفرغ هذه الوحدة من مضمونها العقائدي الجامع بين الروح والمادة ، والعقل والقلب ، والدنيا والآخرة إلى مفهوم إقتصادي مادي صرف وبذلك فشلت نظرية القومية الوافدة كما فشلت مناهج التعليم الغربي والقانون الوضعي ، وأسلوب التنظيمات السياسية الليبرالية وغيرها .

ولقد وقف ساطع الحصري في وضوح موقف الخصومة والحقد والتعصب على الاسلام كلما عرض له ، وقد تجاهله طويلا

فى أبحاثه كأن العرب لم يعرفوه خلال تاريخهم الطويل ، وكانت محاولاته للفصل بين اللغة العربية والفكر الاسلامى من ناحية، وبين تاريخ العرب وتاريخ الاسلام محاولات ساذجة. ثم كشف نفسه وأسقط مكانته كاملة حين اعترف بالقومية اليهودية القائمة على الدين ، بينما عارض عنصر الدين فى فهم القومية العربية وإن كانت كلمة (دين) لا تؤدى معنى الاسلام حين يكون البحث حول العروبة .

وقد ثبت أن ساطع الحصرى قد خدم بدعوته وفكره مفاهيم الماسونية والنظرية القومية الوافدة التى كان النفوذ الغربى حريصاً على تلقينها للعالم العربى، وهى ليست إلا صورة من مفهوم الاقليمية اللبنانية ، والمعروف أن ساطع الحصرى كان من أعمدة وزارة المعارف فى تركيا منذ أوائل حكم الاتحاديين فى تركيا العثمانية إلى أن انتهت الحرب الأولى ، وأنه كان من أخطر الموجهين للبرامج التربوية والتعليمية فى العراق ، حيث عمد إلى فصلها عن الاسلام فصلا تاماً ، وكان دوره أشبه بدور الدكتور طه حسين فى التعليم المصرى .

لقد حاول ساطع الحصرى أن يقيم (فكراً عروبيا إقليميا) منفصلا عن الاسلام فى روحه ومضامينه وشريعته .. ولقد

تجاهل أعماق الأثر الذى تركه الاسلام فى الفكر والثقافة ، واللغة والتاريخ ، وتجاهل أثر القرآن الكريم فى اللغة العربية وفى العرب ومدى ترابط ذلك إلى أكثر من ثلاثة آلاف سنة بالأمة الوسطى الحنيفية السمحاء التى جاء بها إبراهيم عليه السلام فربطت هذا العالم الوسط (عالم العرب والاسلام) بروابط تاريخية وثقافية عميقة دعتها الأديان السماوية التى نزلت فى أرض الرافدين ، وختمتها رسالة الاسلام العالمية التى نزلت فى الجزيرة العربية . للعالمين كافة .

رقم الإيداع ٢٢٤٧ / ١٩٨٠

مطبعة دار البيان ـ بعابدين

على طريق الأصالة الإسلامية

تعالج قضية هامة من القضايا المعاصرة التي تتطلب بيان وجه الإسلام فيها :

١ - ألف مليون مسلم على أبواب القرن الخامس عشر الهجري
٢ - الإستعمار والإسلام
٣ - الصهيونية والإسلام
٤ - الحضارة في مفهوم الإسلام
٥ - التاريخ في مفهوم الإسلام
٦ - فساد نظام الربا في الاقتصاد العالمي
٧ - الدرة المغتصبة بعد ثلاثين عاما « فلسطين »
٨ - يقظة الإسلام في تركيا
٩ - أكذوبتان في تاريخ الأدب الحديث
١٠ - التربية الاسلامية هي الإطار الحقيقي للتعلم

أنور الجندي .

دار الأنصار
٨١ ش البستان ناصية شارع الجمهورية - عابدين ت ٩٣١٥٨١

على طريق الأصالة الإسلامية

دار الأنصار

بعد أن نجحت المجموعة الأولى
تقدم المجموعة الثانية من ١١ - ٢٠

وهي تعالج قضية هامة من القضايا المعاصرة التي تتطلب وجه الإسلام فيها :

١١ - الدعوة الإسلامية في القرن الخامس عشر الهجري
١٢ - بطاقة إسلامية .
١٣ - خلفيات عمر الخيام وقضية الرباعيات .
١٤ - السنة النبوية .
١٥ - حركة تحرير المرأة في ميزان الإسلام . خلفية قاسم أمين وحقيقة هدى شعراوي
١٦ - مفهوم القومية الوافد - سقطت نظرية ساطع الحصري
١٧ - التجربة الغربية في بلاد المسلمين
١٨ - الروتاري (واجهة جديد للماسونية)
١٩ - الفلكلور . إحياء التراث الجاهلي والوثني
٢٠ - حضارة الاسلام تشرق من جديد

أنور الجندي

دار الأنصار
٨١ ش البستان ناصية شارع الجمهورية - عابدين ت ٩٣١٥٨١